

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق وتعليق

دكتور/ محمد زينهم محمد عزب

المؤسسة الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦ ش خاطر - التعاون - فيصل - الهرم
ت ٣٨٢٣٠٢١ فاكس ٣٨٣٥١٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على أفضل خلق الله سيد العالمين ، وسيدنا محمد الصادق الأمين صاحب السيرة العطرية والزكية وبعد ' فإننا نقدم لكل قارئ وباحث ودارس سيرة لعالم أرفقيه من الفقهاء الحنابلة الذى أثر المكتبة العربية بمصنفاته فى شتى العلوم الدينية كالتفسير والحديث ، هذا الفقيه هو ابن تيمية « أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام » الذى ولد فى أيام الظاهر الذى كان يحكم أنذاك مصر والشام وبمعنى أخر قضى أيام صباه فى حكمه ، فلما مات الظاهر بيبرس كان ابن تيمية شاباً بالغاً من العمر . وكانت أسرة ابن تيمية تقيم فى حران وتعرف وتشتهر بالعلم والدين حنبلية العقيدة والمذهب وترأس هذا المذهب فى تلك المكان، وكان جده من أئمة المذهب الحنبلى. قال العلامة شمس الدين الذهبى [« قال لى شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه أن الشيخ ابن مالك كان يقول : لقد آلان الله الفقه لمجد الدين بن تيمية كما ألان الحديد لداود عليه السلام »] . وكان يقول أيضاً أن جدنا مجد الدين كان فيه شيء منه السورة والغضب وقد سأله العلماء مرة عن مسألة علمية ، فقال له إن جواب هذه المسألة على ستين طريقاً ثم عدد عليه كل جواب واحداً بعد الأخر فقال له : حسبك أن تعيدها إنه دهش بهذا الذكاء النادر وبهت، توفى جده سنة ٦٥٢ هـ ، ومن أشهر تصانيفه وتذكاره

العلمي، كتاب منتقى الأخبار يجمع الأحاديث حول الأبواب الفقهية التى تعتبر دليلاً لأهل المذهب ومرجعهم ، وقد تصدى عالم اليمن الشوكانى لشرح الكتاب بأسم نيل الأوطار الذى يحتل مكانه مرموقة فى الأوساط العلمية والتدرسيه لما يحتوى عليه من حسن التلخيص وجودة الترتيب والبحوث المقنعة وسعة نظر المؤلف ورحابة قلبه .

أما والد ابن تيمية الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن تيمية فقد كان عالماً محدثاً وفقيها حنبلياً وصاحب تدريس وإفتاء ،ولما انتقل من حران إلى دمشق قام بالتدريس بصورة منظمة في الجامع الأموى الذى كان يعتبر مركزاً لكبار العلماء والمدرسين ، ولم يكن يسع كل عالم أو مدرس أن يدرس فيه ،وقد كانت دورسه تتميز بالأرتجال والتكلم عن ظهر قلب من غير أن يستعين بكتاب ، إنما كان يعتمد على ذاكرته وحفظه ،وولى شياخة دار الحديث السكرية بالقصاعين وبها كان سكنه ، مات سنة ٦٨٢ هـ .

خلال هذا الجو ظهر ابن تيمية دراسة العلوم بإهتمام وعناية بالغين ، يتحدث عنه مؤرخوه ومعاصروه من العلماء والفقهاء أنه رغم صغر سنه لم يكن يتجه إلى الملاعب والملاهى كما يعمل ويفعل الأطفال فلم يكن يضيع فيها وقته ولكن كان على ذلك مطلعاً على أمور الحياة والمجتمع فى ذلك الوقت وخبيراً بأحوال المدينة وعادات الناس وأخلاقهم ، ويبدو من تألفاته أنه كان واسع النظر ، عميق الدراسة للحياة والمجتمع، ولم يكن يعيش فى عزله عن الناس قابعاً فى ركن علمى فحسب .

درس ابن تيمية العلوم المعروفة فى عصره ، وعنى بالعربية عناية كبيرة وبرع فى اللغة والنحو براعة تامة وقد اعتنى بدراسة الكتاب لسيبويه بنظر ناقد وعقل فاحص ، وعني مع دراسته للعلوم بالخط ، والحساب ، والرياضة . واعتنى بالعلوم الدينية من الفقه والأصول والفرائض ، والحديث ، والتفسير ، أما الفقه الحنبلى فقد ورثه من أبائه ويقول ابن عبد الهادى [« إن شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتى شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد مرات وكذلك الصحاح الستة مرات عديدة »]

أما التفسير فكان أحب موضوع لدى ابن تيمية وكان له شغف زائد بهذا الفن يتحدث أنه درس أكثر من مائة كتاب فى تفسير القرآن .

وكان لابن تيمية مميزات فى مصنفاته التى بلغت ألف وثلاثمائة مجلدة منها تعمقه بأصول الدين وشدة العاطفة والحماسة فى تفسير الآيات القرآنية إلى جانب يملك أسلوب الموسوعة العلمية وقوة اللغة والبلاغة والخطابة ، والأدب ، والشجاعة ، وهذا ما قاله تليمذه الحافظ سرج الدين عنه « وكان إذا ركب الخيل يجول فى العدو كأعظم الشجعان ، ويقوم كأثبت الفرسان وينكى العدو من كثرة الفتك بهم ويخوض بهم خوض رجل لا يخاف الموت . »

مات ابن تيمية فى العشرين من ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بعد أمتحن وتعرضه للأذى أكثر من مرة ، وكان قد ولد

سنة إحدى وستين وستمائة . صفوة القول ابن تيمية من أعلام الفكر والفقه الحنبلى وصاحب مدرسة للتجديد والتوحيد وإبطال العقائد والتقاليد المعادية للإسلام ، فلهذا نقوم بإظهار ثلاثة من أعماله دون التعمق فى ناحية الفقه ، فتقدم تراجم وتعليقات لأشهر العلماء والفقهاء الذين نقل عنهم ابن تيمية دون التعرض للمذاهب .

نقدم لكل قارئ وباحث ودارس هذه الأعمال لاطلاع العالم على أصالة الحضارة العربية ومدى أنتشارها .

وهذه المؤلفات :

١ - التحفة العراقية .
٢ - أمراض القلوب وشفائها .
٣ - العبودية .

وأسأل الله العون والتوفيق فى خدمة العلم والإسلام .

د / محمد زينهم محمد عزب

القاهرة فى ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م

العبودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة : فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر ، والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة . وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضاء بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه ، وأمثال ذلك ، هى من العبادات لله .

وذلك أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة لله والمرضية له ، التى خلق لها كما قال تعالى { **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** } (١) . وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه { **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** } (٢) .

وكذلك قال هود (٣) وصالح (٤) وشعيب (٥) وغيرهم لقومهم وقال تعالى

---

(١) ٥٦ الذاريات .

(٢) ٥٩ الأعراف .

(٣) هود [٦٥ الأعراف] .

(٤) ٧٣ الأعراف .

(٥) ٨٥ الأعراف .

{ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه** } (١).

وقال تعالى { **وما أرسلنا من قبلك رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** } .

وقال تعالى { **وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** } (٢) كما قال فى الآية الأخرى { **يايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إلى بما تعملون عليم** } (٣) وجعل ذلك لازما لرسله إلى الموت كما قال { **واعبد ربك حتى ياتيك اليقين** } (٤) وبذلك وصف ملائكته وانبياءه فقال تعالى : { **وله من فى السموات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون** } (٥) وقال تعالى { **إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه له ويسجدون** } (٦) وذم المستكبرين عنها بقوله { **وقال ربكم ادعونى استجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** } (٧) ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى : { **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** } (٨) وقال { **وعباد الرحمن**

---

(١) ٣٦ النحل .

(٢) ٩٢ الأنبياء .

(٣) ٥١ المؤمنون .

(٤) ٩٩ الحجر .

(٥) ١٩ الأنبياء .

(٦) الأعراف (فى أخر السورة) .

(٧) ٦٠ غافر .

(٨) ٦ الإنسان .

الذين يمشون على الأرض هَوْنا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما } (١) الايات ، ولما قال الشيطان .

{فيما اغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين } (٢) قال الله تعالى { إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين } (٣) .

وقال فى وصف الملائكة بذلك { وقالوا اتخذ الرحمن ولد سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون } (٤) وقال تعالى { وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئا إذا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كل ما فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا } (٥) .

وقال تعالى عن المسيح الذى ادعيت فيه الإلهية والنبوة {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل } (٦) ولهذا قال النبى صلى الله

---

(١) ٦٣ الفرقان .

(٢) ٣٩ الحجر .

(٣) ٤٢ الحجر .

(٤) ٢٦ الأنبياء .

(٥) ٨٨ – ٩٥ مريم .

(٦) ٥٩ الزخرف

عليه وسلم فى الحديث الصحيح " لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله " .

وقد نعته الله بالعبودية فى أكمل أحواله فقال فى الإسراء : { **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** } وقال فى الايحاء { **فاوحى إلى عبده ماأوحى** } (١) وقال فى الدعوة { **وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** } (٢) وقال فى التحدى { **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** } (٣) .

فالدين كله داخل فى العبادة ، وقد ثبت فى الصحيح أن جبريل لما جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة أعرابى وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال : " الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : فما الإمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره .قال : فما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ثم قال فى آخر الحديث " هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم " فجعل هذا كله من الدين .

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال دنته فدان أى أذللته فذل ،

---

(١) ١٠ النجم .

(٢) ١٩ الجن .

(٣) ٢٣ البقرة .

ويقال ندين الله ندين لله أى نعبد الله ونطيعه ونخضع له .

فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له ..

والعبادة أصل معناها الذل أيضا ، يقال طريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم ، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها التتيم يقال " تيم الله " أى عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه ؛ ومن خضع لإنسان مع بغضه فلايكون عابداً ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحب ولده وصديقه . ولهذا لايكفى أحدهما فى عبادة الله ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شىء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا لله ، فكل ماأحب لغير الله فمحبته فاسدة وماعظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلا ، قال تعالى : { **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتى الله بأمره** }(١) .

فجنس المحبة يكون لله ورسوله ، كالطاعة تكون لله ورسوله ، والإرضاء لله ورسوله { **والله ورسوله أحق أن يرضوه** } (٢) . والإيتاء لله ورسوله {**ولو أنهم رضوا ما أتاهم الله ورسوله** } (٣) .

---

(١) ٢٤ التوبة .

(٢) ٦٢ التوبة .

(٣) ٥٩ التوبة .

وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك فلايكون إلا لله وحده كما قال تعالى { **قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** } (١) وقال تعالى : { **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** } (٢) فالايتاء لله ولرسوله لقوله تعالى {**وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا** } .(٣)

وأما الحسب وهو الكافى فهو الله وحده كما قال تعالى : { **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** }(٤) وقال تعالى : { **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** } (٥) أى حسبك وحسب من اتبعك الله ، ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنين معه فقد غلط غلطاً فاحشاً كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع . وقال تعالى : { **أليس الله بكاف عباده** }(٦) .

وتحرير ذلك أن العبد يراد به المعبد الذى عبده الله فذلله وبره وصرفه ، وبهذا الاعتبار فجميع المخلوقين عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين

---

(١) ٦٤ آل عمران .

(٢) ٥٩ التوبة .

(٣) ٧ الحشر .

(٤) ٧٣ آل عمران .

(٥) ٦٤ الأنفال .

(٦) ٣٦ الزمر .

والكفار وأهل الجنة وأهل النار ، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لايخرجون عن مشيئته وقدره وكلماته التامات التى لايجاوزها ولا فاجر ، فما شاء كان وإن لم يشأوا وماشاءوا إن لم يشاء لم يكن ، كما قال تعالى : { **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** } (١)

فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ، ومميتهم ، ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم ، لارب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو انكروه ، وسواء علموا بذلك أو جهلوه . ولكن أهل الايمان منهم علموا ذلك واعترفوا به ، بخلاف من كان جاهلا بذلك أو جاحداً له مستكبرا على ربه لايقر ولايخضع له ، مع علمه بأن الله ربه وخالقه ، فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذابا على صاحبه كما قال تعالى { **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** }(٢) وقال تعالى : { **الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** } (٣) وقال تعالى { **فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** } (٤) ..

فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه ومحتاج إليه عرف عبوديته المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع إليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان

---

(١) ٨٣ آل عمران .

(٢) ١٤ النمل .

(٣) ١٤٦ البقرة .

(٤) ٣٣ الأنعام .

والأصنام ، ومثل هذه العبودية لاتفرق بين أهل الجنة وأهل النار ولايصير بها الرجل مؤمنا كما قال الله تعالى : { **ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** } (١) فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره ، قال تعالى : { **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله** } (٢) وقال تعالى : { **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء هو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون** } (٣) .

وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة ، وهى الحقيقة الكونية التى يشترك فيها وفى شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وإبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار ، قال إبليس { **رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** } (٤) ، وقال : { **رب بما أغويتنى لأزين لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين** } (٥) وقال : { **فبعزتك لأغوينهم أجمعين** } (٦) .

---

(١) ١٠٦ يوسف .

(٢) ٩ ١ الزخرف .

(٣) ٨٦ المؤمنون .

(٤) ٣٦ الحجر .

(٥) ٣٩ الحجر .

(٦) ٨٢ ص .

وقال : { **أرأيتك هذا الذى كرمت على** } [١] وأمثال هذا من الخطاب الذى يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره وكذلك أهل النار قالوا : { **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين** } [٢] ، وقال : { **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا** }[٣] .

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسله كان من جنس إبليس وأهل النار ، وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله تعالى وأهل المعرفة والتحقيق الذين سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك كان قوله هذا شراً من أقوال الكافرين بالله ورسله ، حتى يدخل فى النوع الثانى من معنى العبد وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله لايعبد إلا إياه فيطيع أمره وأمر رسله ، ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ويعادى أعداءه .

وهذه العبادة متعلقة بإلهيته تعالى ، ولهذا كان عنوان التوحيد لإله إلا الله، بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبد أو يعبد معه إلها آخر .

فالإله الذى يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، وهذه العبادة هى التى يحبها الله ويرضاها ، وبها وصف المصطفين من عباده ، وبها بعث رسله ، وأما العبد بمعنى المعبد

---

(١) سورة الاسراء .

(٢) ١٠٩ المؤمنون .

(٣) ٣٠ الأنعام .

سواء أقر بذلك أو أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر ، وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة فى عبادة الله ودينه وأمره الشرعى التى يحبها ويرضاها ويوالى أهلها ويكرمهم بحسبه ، وبين الحقائق الكونية التى يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التى من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين ، ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض أو فى مقام أو حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب مانقص من الحقائق الدينية .

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون ، وكثر فيه الاشتباه على السالكين ، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المنتسبين إلى التحقيق والتوحيد والعرفان مالايحصيهم إلا الله الذى يعلم السر والإعلان .

وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر رحمه الله (١) فيما ذكر عنه بأن كثيرا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء ، والقدر أمسكوا ، إلا أنا فانى انفتحت لى فيه روزنة (٢) فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا للقدر .

والذى ذكر الشيخ رحمه الله هو الذى أمر الله به ورسوله لكن كثير من الرجال غلطوا ، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصى والذنوب أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته فيظنون أن الأستسلام لذلك وموافقته والرضاء به ونحو ذلك دينا وطريقا

---

(١) المقصود بالعالم والفقيه عبد القادر الجيلانى .

(٢) المقصود بالنافذه .

وعبادة ، فيضاهون المشركين الذين قالوا : **{ لوا شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء }**(١) وقالوا : **{ انطعم من لو يشاء الله أطعمه }** . وقالوا : **{ لو شاء الرحمن ما عبدناهم }** (٢)ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به ونصر على موجبه فى المصائب التى تصيبنا كالفقر والمرض والخوف ، قال تعالى : **{ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه }** (٣) ، قال بعض السلف : هو الرجل تصيبه فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم . وقال تعالى : **{ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تاسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم }** (٤) .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " احتج آدم وموسي ، فقال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل أن أخلق ؟ قال : نعم . قال فحج آدم موسى " وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر فإن هذا لايقوله مسلم ولايقوله عاقل ، ولو كان هذا عذراً لإبليس وقوم نوح وقوم عاد وكل كافر ، ولاموسى أيضا لام لآدم عليه السلام لأجل الذنب ، فإن آدم تاب الله عليه فاجتباه وهداه ، ولكن لامه لأجل المصيبة التى لحقتهم

---

(١) ١٤٨ الأنعام .

(٢) ٢٠ الزخرف .

(٣) ١١ التغابن .

(٤) ٢ الحديد .

بالخطيئة ، ولهذا قال له : فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة " فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوبا قبل أن يخلق ، فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً ، وما قدر من المصائب يجب الإستسلام له فإنه من تمام الرضاء بالله ربا .

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب من صنوف المعايب ويصبر على المصائب ، قال تعالى : **{ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك }** (١) وقال **{ وأن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا }** (٢) وقال تعالى : **{ وأن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور }** (٣) وقال يوسف : **{ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين }** (٤) .

وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ، ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنافقين ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله ، ويحب فى الله ويبغض فى الله تعالى كما قال تعالى : **{ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم }** (٥) إلى قوله : **{ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذا قالوا لقومهم**

---

(١) ٥٥ غافر .

(٢) ٢٠ آل عمران .

(٣) ٨٦ آل عمران .

(٤) ٩٠ يوسف .

(٥) ١ الممتحنة .

إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده } وقال تعالى : { لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا اباءهم أو أخوتهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه } (١) وقال تعالى : { أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار } (٢) وقال تعالى : { أفنجعل المسلمين كالمجرمين } (٣) وقال تعالى : { أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون }(٤) وقال تعالى : { وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات }(٥) ، وقال تعالى : { ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا } (٦) قال تعالى : { ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ؟ والحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم } (٧) وقال تعالى : { لايستوى

---

(١) ٢٢ المجادلة .

(٢) ٢٨ ص .

(٣) ٣٥ القلم .

(٤) ٢١ الجاثية .

(٥) ٢١ فاطر .

(٦) ٢٩ الزمر .

(٧) ٧٥ النحل .

أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون }(١) .

ونظائر ذلك كثير مما يفرق الله فيه بين أهل الحق والباطل ، وأهل الطاعة والمعصية ، وأهل البر والفجور ، وأهل الهدى والضلال ، وأهل الغى والرشاد ، وأهل الصدق والكذب .

فمن شهد الحقيقة الكونية دون الدينية سويَّ بين هذه الأجناس المختلفة التى فرق الله بينها غاية التفريق حتى يئول به الأمر إلى أن يسوى الله بالأصنام كما قال تعالى عنهم : { **تالله إنكنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين** }(٢) بل قد ال الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقا لكل موجود إذ جعلوه هو وجود المخلوقات ، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد والكفر برب العباد ، وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لايشهدون أنهم عباد لابمعنى أنهم معبودون ولا بمعنى أنهم عابدون ، إذ يشهدون أنفسهم هى الحق كما صرح بذلك طواغيتهم كابى عربى صاحب الفصوص وأمثاله من الملحدين المفترين كابن سبعين وأمثاله ، ويشهدون أنهم من العابدون والمعبودون ، وهذا ليس بشهود لحقيقة لاكونية ولا دينية ، بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتا للخالق وللمخلوق ، إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم .

وأما المؤمنون بالله ورسوله عوامهم ، وخواصهم الذين هم أهل الكتاب كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن لله أهلين من الناس ، قيل من

---

(١) ٢٠ الحشر .

(٢) ٩٨ الشعراء .

هم يارسول الله ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته ، فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ليس هو حالا فيها ولا متحداً بها ولا وجوده وجودها ، والنصارى كفرهم الله بأن قالوا بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة فكيف من جعل ذلك عاما فى كل مخلوق ، ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ، وأنه لايحب الفساد ولايرضى لعباده الكفر . وأن على الخلق أن يعبدوه ويطيعوا أمره ويستعينوا به على ذلك ، كما قال : **{إياك نعبد وإياك نستعين}** (١) .

ومن عبادته وطاعة أمره : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحسب الإمكان والجهاد فى سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فيجتهدون فى إقامة دينه مستعينين به دافعين مزيلين بذلك ماقدر من السيئات ، دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل ويدفع به الجوع المستقبل ، وكذلك إذا أزال البرد ودفعه باللباس ، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه ، كما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : " أرأيت أودية نتداوى بها ونسترقى بها وتقاه نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : هى من قد الله ، وفى الحديث : " إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض .

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله ، وكل ذلك من العبادة ، وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية وهى ربوبيته تعالى لكل شيء ويجعلون ذلك مانعا من أتباع أمره الدينى الشرعى على مراتب فى الضلال :

---

(١) الفاتحة (فى سورة الفاتحة) .

فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً ، أتباع أمره الدينى الشرعى على مراتب فى الضلال : فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً ، فيحتجون بالقدر فى كل ما يخالفون فيه الشريعة ، وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا : { **لو شاء الله ما أشركنا ولاآباؤنا ولا حرمنا من شيء** }(١) وقالوا : { **لو شاء الله ماعبدناهم** } (٢) ، وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً ، بل كل من احتج بالقدر متناقض ، فإنه لايمكنه أن يقر كل آدمى على مافعل ، فلابد إذا ظلمه ظالم أو ظلم الناس ظالم وسعى فى الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع الضرر التى قوام للناس بها أن يدفع هذا العدوان ، ويعاقب الظالم بما يكف عدوان أمثاله ، فيقال له إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك ، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك .

وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لايطردون هذا القول ولا يلتزمونه ، وإنما هم بحسب أهوائهم وآرائهم ، كما يقال فيهم بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى ، أى مذهب وافق هواك تمذهب به .

ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة فيزعمون أن الأمر والنهى لازم لمن شهد لنفسه فعلا وأثبت له صنعا ، أما من شهد أن أفعاله مخلوقة أو أنه مجبور على ذلك وأن الله هو المتصرف فيه كما يحرك سائر المتحركات فإنه

---

(١) ٤٨ الأنعام .

(٢) ٢٠ الزخرف .

يرتفع عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد . وقد يقولون من شهد الإرادة سقط عنه التكليف . ويزعم أحدهم أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الإرادة ، فهؤلاء يفرقون بين العامة وبين الخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد وأنه مريد لجميع الكائنات ، وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علما وبين منيراه شهودا ، فلايسقطون التكليف عن من يؤمن بذلك ويعلمه فقط ولكن عن من يشهده فلايرى لنفسه فعلا أصلا ، وهؤلاء يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعا من التكليف على هذا الوجه .

وقد وقع فى هذا طوائف من المنتسبين الى التحقيق والمعرفة والتوحيد ، وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافه كما ضاق نطاق المعتزلة من القدرية عن ذلك .

ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهى الشرعيين وردت القضاء والقدر الذى هو إرادة الله العامة وخلقه لأفعال العباد ، هؤلاء أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهى فى حق من شهد القدر إذ لم يمكنهم نفى ذلك مطلقا ، وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة ، ولهذا لم يكن فى السلف من هؤلاء أحد . وهؤلاء يجعلون الأمر والنهى للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية ، ولهذا يجعلون من وصل إلى هذه الحقيقة سقط عنه الأمر والنهي وصار من الخاصة ، وربما تولوا على ذلك قوله تعالى : { **واعبد ربك حتى يأتينك اليقين** } (١) وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة ، وقول هؤلاء كفر صريح ، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأمر والنهى لازم لكل عبد مادام عقله حاضراً إلى أن يموت ، لايسقط عنه الأمر والنهى لابشهوده القدر ولابغير ذلك فمن لم

---

(١) ٩٩ الحجر .

يعرف ذلك عرفه وبين له ، فإن أصر على اعتقاد سقوط الأمر والنهى فإنه يقتل .

وقد كثرت مثل هذه المقالات فى المتأخرين ، وأما المتقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة بينهم ، وهذه المقالات هى محادة الله ورسوله ومعاداة له وصد عن سبيله ومشاقة له وتكذيب لرسله ومضادة له فى حكمه ، وإن كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك ويعتقد أن هذا الذى هو عليه طريق الرسول وطريق أولياء الله المحققين فهو فى ذلك بمنزلة من يعتقد أن الصلاة لا تجب عليه لاستغنائه عنها بما يحصل له من الأحوال القلبية ، أو أن الخمر حلال له لكونه من الخواص الذين لايضرهم شرب الخمر ، أو أن الفاحشة حلال له لأنه صار كالبحر لاتكدره الذنوب ونحو ذلك .

ولاريب أن المشركين الذين كذبوا الرسل يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمر الله ، فهؤلاء الأصناف فيهم شبه من المشركين إما أن يبتدعوا وإما أن يحتجوا بالقدر وإما الأن يجمعوا بين الأمرين كما قال تعالى عن المشركين : { **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون** }(١) وكما قال تعالى عنهم { **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولاآباؤنا ولاحرمنا من شيء** } (٢) .

وقد ذكر عن المشركين ماابتدعوه من الدين الذى فيه تحليل الحرام والعبادة التى لم يشرعها الله بمثل قوله : { **وقالوا هذه أنعام وحرث حجر**

---

(١) ٢٨ الأعراف .

(٢) ٤٨ الأنعام .

لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه } (١) إلى آخر السورة ، وكذلك فى سورة الأعراف [٢٧] فى قوله تعالى : **{ يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة }** إلى قوله **{ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، الله أمرنا بها ، قل إن الله لايأمر بالفحشاء }** إلى قوله **{ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد }** إلى قوله **{ وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة }** إلى قوله **{ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون }** .

وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع حقيقة ، كما يسمون مايشهدون من القدر حقيقة ، وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذى لايتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه ، ولكن بما يراه ويذوقه ويجده ونحو ذلك ، وهؤلاء لايحتجون بالقدر مطلقا بل عمدتهم أتباع أمر الله ورسوله نظير بدع أهل الكلام من الجهمية وغيرهم الذين يجعلون مابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقلية جب اعتقادها دون مادلت عليه السمعيات ، ثم الكتاب والسنة إما أن يحرفوه عن مواضعه وإما أن يعرضوا عنه بالكلية فلايتدبرونه ولايعقلونه بل يقولون نفوض معناه إلى الله مع اعتقادهم لنقيض مدلوله ، وإذا حقق على هؤلاء مايزعمونه من العقليات المخالفة

---

(١) ١٣٨ الأنعام .

للكتاب والسنة وجدت جهليات واعتقادات فاسدة ، وكذلك أولئك إذا حقق عليهم مايزعمونه من حقائق أولياء الله المخالفة للكتاب والسنة وجدت من الأهواء التى يتبعها أعداء الله لاأولاياؤه .

وأصل ضلال من ضل هو تقديم قياسه على النص المنزل من عند الله ، وأختياره الهوى على أتباع أمر الله ، فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته .

فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله فى الحديث الصحيح " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار " وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : " ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا " .

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه ، قيل لسفيان بن عيينة(١) : مابال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم ؟ فقال : أنسيت قوله تعالى : { **واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم** } (٢) أو نحو هذا الكلام ،

---

(١) هو أبو محمد الكوفى الأعور سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى أحد أئمة الإسلام روى عن عمرو بن دينار والزهرى وزياد بن علاقة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ، وعنه الشافعى وابن المدينى وابن معين وابن راهوية والفلاس ، مات بمكة ١٩٨ هـ .

انظر : تاريخ بغداد ١٧٤/٩ ، تذكرة الحفاظ ٢٦٢/١ ، حلية الأولياء ٢٧٠/٧ ، ميزان الأعتدال ١٧٠/٢ .

(٢) ٩٣ البقرة

فعباد الأصنام يحبون آلهتهم كما قال تعالى : { **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله** }(١) وقال {**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** } (٢) وقال { **إن يتبعون إلا الظن ، وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** } (٣) ولهذا يميل هؤلاء إلى سماع الشعر والأصوات التى تهيج المحبة المطلقة التى لاتختص بأهل الإيمان بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب الصلبان ومحب الأوطان ومحب الإخوان ومحب المردان ومحب النسوان ، وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب ،السنة وما كان عليه سلف الأمة .

فالمخالف لما بعث الله به رسله من عبادته وطاعته وطاعة رسله لايكون متبعا للدين الذى شرعه الله كما قال : { **ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين** } (٤) بل يكون متبعا لهواه بغير هدى من الله ،قال تعالى : { **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** }(٥) فى ذلك تارة يكونون على بدعة يمسونها حقيقة

---

(١) ١٦٥ البقرة .

(٢) ٥٠ القصص .

(٣) ١١٦ الأنعام .

(٤) ١٨ الجاثية .

(٥) ٢١ الشورى .

يقدمونها على شريعة الله ، وتارة يحتجون بالقدر الكونى على شريعة الله كما أخبر به تعالى عن المشركين كما تقدم ، ومن هؤلاء طائفة هم أعلاهم قدرا وهم مستمسكون بالدين فى أداء الفرائض المشهورة واجتناب المحرمات المشهورة ، لكن يغلطون في ترك ما أمروا به من الأسباب التى هى عبادة ، ظانين أن العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك ، مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة بناء على أن من شهد القدر على أن ما قدر سيكون لاحاجة إلى ذلك ، وهذا غلط عظيم ، فإن الله قدر الأشياء بأسبابها كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابها ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الله خلق للجنة أهلا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل الجنة يعملون ، وخلق للنار أهلا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل الجنة يعملون . وخلق للنار أهلا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل النار يعملون " وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الله خلق للجنة أهلا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل الجنة يعملون ، وخلق للنار أهلا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل النار يعملون " وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بإن الله كتب المقادير " فقالوا يارسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة " .

فما أمر الله به عباده من الأسباب هو عبادة ، والتوكل مقرون بالعبادة كما فى قوله تعالى : { **فاعبده وتوكل عليه** } (١) وفى قوله : { **قل هو ربى**

---

(١) ١٢٣ هود .

لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب } (١) ومن قول شعيب عليه السلام : **{عليه توكلت وإليه أنيب }** (٢) ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال دون الواجبات فتنقص بقدر ذلك ، ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة – مثل مكاشفة أو استجابة دعوة مخالفة للعادة العامة ونحو ذلك – فيشتغل أحدهم عما أمر به من العبادات والشكر ونحو ذلك ، فهذه الأمور ونحوها كثيرا ما تعرض لأهل السلوك والتوجيه ، وإنما ينجو العبد منها بملازمة أمر الله الذى بعث به رسوله فى كل وقت كما قال الزهرى : كان من مضى من سلفنا يقولون الأعتصام بالسنة نجاة ، وذلك أن السنة كما قال مالك (٣) رحمة الله مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق .

والعبادة والطاعة والاستقامة ، ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلان .

أحدهما أن لايعبد إلا الله ..

والثانى أن يعبده بما أمر وشرع ولابغير ذلك من الأهواء والبدع ، قال تعالى : **{ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعادة ربه أحدا }** (٤) وقال تعالى : **{ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره**

---

(١) ٣٠ الرعد .

(٢) ١١٠ الشورى .

(٣) انظر : ترجمته فى البداية والنهاية ١٧٤/١٠ ، تذكرة الحفاظ ٢٠٧/١ ، تهذيب الأسماء ٧٥/٢، تهذيب التهذيب ٥/١٠ ، طبقات الفقهاء ٦٧، الديباج المذهب ١٧ ، العبر ٢٧٢/١ ، اللباب ٥٥/١ .

(٤) ١١٠ الكهف .

عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون } (١)وقال تعالى : **{ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلاً }**(٢) .

فالعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات ، والحسنات هى ما أحبه الله ورسوله ، وهو أمر به من إيجاب واستحباب .

فما كان من البدع التى فى الدين ليست مشروعة فإن الله لايحبها ولارسوله فلاتكون من الحسنات ولا من العمل الصالح ، كما أن ما يعلم أنه فجور كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح ، وأما قوله : **{ ولايشرك بعبادة ربه أحدا }** (٣) وقوله : **{ اسلم وجهه لله }** (٤) فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولاتجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال الفضيل بن عياض (٥) فى قوله : **{ ليبلوكم أيكم أحسن**

---

(١) ١١٢ البقرة .

(٢) ١٣٥ النساء .

(٣) الكهف .

(٤) ١١٢ البقرة ، ١٢٥ النساء .

(٥) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى أبو على الزاهد ، أحد العباد روى عن الأعمش ومنصور وجعفر الصادق وسليمان التيمي وحميد الطويل ويحي الأنصارى ، وعنه الشافعى والسفيانان وابن المبارك ويحي القطان وبشر الحافي والسري السقطى ، ثقة ، مات بمكة ١٨٧ هـ .

انظر : تذكرة الحفاظ ١/٢٤٥ ، حلية الأولياء ٨/٨٤ ، شذرات الذهب ١/٣١٦ ، وفيات الأعيان ١/٤١٥ ، ميزان الأعتدال ٣/٣٦١ .

عمــلا } (١) قال أخلصه وأصوبه ،قالوا : ياأبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . فإن قيل فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلا فى اسم العبادة فماذا عطف عليها غيرها كقوله : **{ إياك نعبد وإياك نستعين }**(٢) وقوله : **{ فاعبده وتوكل عليه }** (٣) وقول نوح : **{ اعبدوا الله واتقوه وأطيعون }** (٤) وكذلك قول غيره من الرسل ، قبل: هذا له نظائر كما فى قوله **{ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر }** (٥) وكذلك : **{ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى }** (٦) وايتاء ذى القربى ومن العدل والإحسان ، كما أن الفحشاء والبغى من المنكر ، وكذلك قوله : **{ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة }** (٧) وأقام الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب ، وكذلك قوله : **{أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً }**(٨) ودعاؤه رغباً

---

(١) ٧ هود ، ٢ الملك .

(٢) ٥ سورة الفاتحة .

(٣) ٣ نوح .

(٤) ١٢٣ هود .

(٥) ٤٥ العنكبوت .

(٦) ٩٠ النحل .

(٧) ٧٠ الأعراف .

(٨) ٩٠ الأنبياء .

ورهباً من الخيرات ، وأمثال ذلك فى القرآن كثير .

وهذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر لكونه مطلوبا بالمعنى العام والمعنى الخاص ، وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الإفراد والاقتران ، فإذا أفرد عم وإذا قرن بغيره خص ، كاسم الفقير والمسكين لما أفرد أحدهما فى قوله تعالى **{للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله }** (١) وقوله **{ إطعام عشرة مساكين }** (٢) دخل فيه الآخر ، ولما قرن بينهما فى قوله تعالى : **{ إنما الصدقات للفقراء والمساكين }** (٣) صارا نوعين ، وقد قيل إن الخاص المعطوف على العام لايدخل فى العام حال الاقتران بل يكون من هذا الباب .

والتحقيق أن هذا ليس بلازم قال تعالى : **{وملائكته ورسله وجبريل وميكال}** (٤) وقال تعالى : **{ من كان عدواً لله }** وقال تعالى :(٥) **{ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومريم }** وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة : تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام كما فى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لايفهم منه العموم كما فى قوله **{ هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما**

---

(١) ٢٧٣ البقرة .

(٢) ٨٩ المائدة .

(٣) ٦٠ التوبة .

(٤) ٩٨ البقرة .

(٥) ٧ الأحزاب .

أنزل إليك وما أنزل من قبلك } (١) فقوله { **يؤمنون بالغيب** } يتناول الغيب الذي يجب الإيمان به . لكم فيه إجمال ، وليس فيه دلالة على أن من المغيب ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وقد يكون من المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب ، وبالإخبار بالغيب وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : { **اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة**}(٢) وقوله تعلى : { **والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة** } (٣) وتلاوة الكتاب هى اتباعه كما قال ابن مسعود فى قوله : { **الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته** }(٤) قال : يحللون حلاله ويحرمون حرامه ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه ، فأتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها ، لكن خصصها بالذكر لمزيتها ، وكذلك قوله لموسي : { **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** }(٥) وأقام الصلاة لذكره من أجل عبادته وكذلك قوله تعالى : { **اتقوا الله وقولوا قولا سديدا** } (٦)وقوله : {**اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة** } (٧) وقوله : { **اتقوا الله وكونوا مع**

---

(١) أول البقرة .

(٢) ٤٥ العنكبوت .

(٣) ١٧٠ الأعراف .

(٤) ١٢١ البقرة .

(٥) ١٤ طه .

(٦) ٧٠ الأحزاب

(٧) ٣٥ المائدة

الصادقين } (١) فإن هذه الأمور هى أيضا من تمام تقوى الله فكذلك قوله **{فاعبده وتوكل عليه }** (٢) فإن التوكل والاستعانة هى من عبادة الله ، لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصيتها بأنها هى العون على سائر أنواع العبادة ، إذ هو سبحانه لايعبد إلا بمعونته .

إذا تبين هذا فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم . قال تعالى : **{ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون، لا سيبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون }** (٣) وقال تعالى : **{وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إذا ، تكاد السماوات يتقطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً ، ومايبنغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً }** وقال تعالى فى المسيح : **{ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل}** (٤) وقال تعالى : **{ وله من فى السماوات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون }**

---

(١) ١١٩ التوبة .

(٢) ١٢٣ هود .

(٣) ٢٧ الأنبياء .

(٤) ٨٩ مريم .

(١) وقال تعالى : { لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ،ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا .

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولايجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً } (٢) وقال تعالى : { وقال ربكم ادعونى استجيب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين } (٣) وقال تعالى : { ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون } (٤) وقال تعالى : { واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين ، إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون } (٥) وهذا ونحوه مما فيه وصف أكابر المخلوقات بالعبادة وذمه من خرج عن ذلك متعدد فى القرآن ، وقد أخبر الله أنه أرسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى : { وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون } (٦) وقال تعالى { ولقد بعثنا فى كل

---

(١) ١٩ الأنبياء .

(٢) ١٧٢ النساء .

(٣) ٦٠ غافر .

(٤) ٣٧ فصلت .

(٥) ٢٠٥ الأعراف .

(٦) ٢٥ الأنبياء .

أمة رسلوا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } (١) وقال تعالى لبنى اسرائيل : **{ ياعبادى الذى آمنوا إن أرضي واسعة فإياى فاعبدون }** (٢) **{ وإياي فاتقون }** (٣) ، : **{ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون }** (٤) وقال تعالى : **{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }** (٥) وقال تعالى : **{ قل إنى إمرت أن اعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه }**(٦) وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله ، كقول نوح ومن بعده عليهم السلام :. **{ أعبدوا الله مالكم من إله غيره }** (٧) .

وفى المسند عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى " وقد بين أن عباده هم الذين ينجون من الشيطان ، قال الشيطان : **{ فيما أغويتنى لأزين لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم**

---

(١) ٣٦ النحل .

(٢) ٥٦ العنكبوت .

(٣) ٤١ البقرة .

(٤) ٢١ البقرة .

(٥) ٥٦ الذاريات .

(٦) ١١ الزمر .

(٧) ٥٩ الأعراف .

المخلصين} (١) قال الله تعالى : {إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين } (٢) وقال : {فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين } (٣) وقال فى حق يوسف عليه السلام : { كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عباد الله المخلصين } (٤) وقال : { سبحان الله عما يصفون إلا عبادنا الله المخلصين }(٥) وقال : { إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون } (٦) .

وبها نعت كل من اصطفاه من خلقه كقوله تعالى : { واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكر الدار }(٧) وقوله { واذكر عبدنا داود ذا الأيدى إنه أواب } (٨) وقال عن سليمان : { نعم العبد إنه أواب } (٩)وعن أيوب { نعم العبد } (١٠) وقال : { واذكـــر عبدنا أيـــوب إذ نـــادى ربه} (١١) وقال عن

---

(١) ٣٩ الحجر .

(٢) ٤٢ الحجر .

(٣) ٨٢ ص .

(٤) ٢٤ يوسف .

(٥) ١٥٩ الصافات .

(٦) ٩٩ النحل .

(٧) ٤٥ ص .

(٨) ٣٠ ص .

(٩) ٤٤ ص .

(١٠) ٤١ ص .

(١١) ٣ اللاسراء .

نوح عليه السلام : { **ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا** } (١)
وقال [أول سورة الإسراء] : {**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** } وقال :
{**وإنه لما قام عبد الله يدعوه** } (٢) وقال : { **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على**
عبدنا } (٣) وقال { **فأوحى إلى عبده ما أوحى** } وقال : { **عينا يشرب بها**
عباد الله } وقال {**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا** } (٤)
ومثل هذا متعدد فى القرآن .

---

(١) ١٩ الجن .

(٢) ٢٣ البقرة .

(٣) ٦ الأنسان .

(٤) ٦٣ الفرقان .

فصـــل

إذا تبين لك ذلك فمعلوم أن الناس فى هذا الباب يتفاضلون فيه تفاضلا عظيما ، وهو تفاضلهم فى حقيقة الإيمان ، وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص ، ولهذا كانت ربوبية الرب سبحانه لهم فيها عموم وخصوص وضروب ، ولهذا كان الشرك فى هذ الأمة أخفى من دبيب النمل ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة ، وذكر فيه ماهو دعاء وخبر وهو قوله : " تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش " والنقش إخراج الشوكة من الرجل ، والمنقاش مايخرج به الشوكة . وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه . وهذه حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بأنه رذا أعطى رضى وإذا منع سخط كما قال تعالى : { **ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإذا أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون**}(١) فرضهم لغير الله وسخطهم لغير الله . وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة أو بصورة - ونحو ذلك من أهواء نفسه - إن حصل له رضى و لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ، ولهذا يقال :

العبد الحر ما قنع   والحر عبد ماطمع

وقال الشاعر :

---

(١) ٥٨ التوبة .

اطلعت مطامعي فاستعبدتني ولو إني قنعت لكنت حرا

ويقال : الطمع غل في العنق وقيد في الرجل ، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل . وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : الطمع فقر ، واليأس غنى ، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه . وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه ، فإن الأمر الذي ييأس منه لايطلبه ولايطمع به فلايبقى قلبه فقيرا إليه ولا إلى من يفعله ، أما إذا طمع في أمر من الأمور رجاء وتعلق قلبه فصار فقيرا إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله ، وهذا المال والجاه والصور وغير ذلك ، فقال الخليل صلى الله عليه وسلم :{**فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له** } (١) .

فالعبد لابد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك ، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيراً له ، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً له ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما أبيحت للضرورة ، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد كقوله صلى الله عليه وسلم : " لاتزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهة مزعه لحم " : وقوله : " من سأل الناس وله مايغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه " وقوله : " لاتحل المسألة إلا لذي غرم مفظع ، أو دم موجع ، أو فقر مدقع " وهذا المعنى في الصحيح ، وفيه أيضا " لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه " وقال : " ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولامستشرف فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك " فكره أخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب ، وقال في الحديث الصحيح : " من يستغن يغنه

---

(١) ١٧ العنكبوت .

الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر " وأوصى خواص أصحابه أن لايسألوا الناس شيئاً أصلاً .

وفى المسند " أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يسقط من يده الشيء فلا يقول لأحد ناولنى إياه ، ويقول : ئن خليلى أمرنى أن لاأسأل الناس شيئاً " وفى صحيح مسلم وغيره " عن عوف بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم يطيعه فى طائفة وأسر إليهم كلمة خفية أن لايسألوا الناس شيئا ، فكان بعض أولئك النفر ليسقط السوط من يد أحدهم فلايقول لأحد ناولنى إياه " وقد دلت النصوص على لأمر بمسألة الخالق والنهى عن مسألة المخلوق فى غير موضع كقوله : { **فإذا فرغت فانصب و إلى ربك فارغب** }(١) وقول النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس " إذا سألت فأسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله "(٢) ومنه قول الخليل عليه السلام : { **فابتغوا عند الله الرزق** } (٣) ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله ، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر كأنه قال لا تبتغوا الرزق إلا عند الله ، وقد قال تعالى : { **واسألوا الله من فضله** } (٤) والإنسان لابد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه ومن دفع مايضره وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله ، فله يسأل ، وإليه يشتكي كما قال يعقوب : { **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** }(٥) .

---

(١) ٧ الم نشرح .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند .

(٣) ١٧ العنكبوت .

(٤) ٣٢ النساء .

(٥) ٨٦ يوسف .

والله تعالى ذكر فى القرآن الهجر الجميل والصبر الجميل والصفح الجميل، وقد قيل إن الهجر الجميل هو الهجر بلا أذى ، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة ، والصبر الجميل صبر بلا شكوى إلى المخلوق . ولهذا قرىء على أحمد بن حنبل فى مرضه أن طاوساً كان يكره أنين المريض ويقول إنه شكوى ، فما أنَّ أحمد بن حنبل حتى مات .

وأما الشكوى إلى الخالق سبحانه فلا تنافى الصبر الجميل ، فإن يعقوب عليه السلام قال : { **فصبر جميل** } (١) وقال : { **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** } (٢) . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقرأ فى الفجر بسورة يونس ويوسف والنحل ، فمر بهذه الآية فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف .

ومن دعاء موسى عليه السلام " اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك " وفى الدعاء الذى دعا به النبى صلى الله عليه وسلم لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، اللهم إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ وإن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخره أن ينزل بى سخطك ، أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، فلا حول ولا قوة إلا بك " وفى بعض الروايات : " ولا حول ولا قوة إلا بك (٣) وكلما قوى طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه

---

(١) ١٨ ، ٨٣ يوسف .

(٢) ٨٦ يوسف .

(٣) إسناد ضعيف .

لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه ، فكما أن طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له ، ويأسه منه يوجب غناء قلبه عنه - كما قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأفضل على من شئت تكن أميره، وإحتج إلى من شئت تكن أسيره - فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له ، وإعراض قلبه عن الطلب من الله ، والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله ، لاسيما من كان يرجو المخلوق ولايرجو الخالق ، ويكون قلبه معتمداً إما على رياسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإما على أهله وإصدقائه ، وإما على أمواله وذخائره ، وإما على سادته وكبرائه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت ، قال تعالى : { **وتوكل على الحى الذى لايموت ، وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرا** }(١) .

وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ، وإن كان فى الظاهر أميراً لهم مديراً لهم متصرفاً بهم ، فالعاقل ينشر إلى الحقائق لا إلى الظواهر ، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو فى الظاهر سيدها لأنه زوجها ، وهو فى الحقيقة أسيرها ومملوكها ، لاسيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها وأنه لايعتاض عنها بغيرها ، فإنها تحكم فيه حينئذ حكم السيد القاهر الظالم فى عبده المقهور الذى لايستطيع الخلاص منه بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من إستعباد البدن ، فإن من استعبد بدنه استرق وأسر لايبالى إذا كان قلبه مستريحا من ذلك مطمئنا

---

(١) ٥٨ الفرقان .

بل يمكنه الإحتيال فى الخلاص ، وأما إذا كان القلب الذى هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب ، وعبودية القلب وأسره هى التى يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر واسترقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما قدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران ، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك ، واما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان فى الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى القلب ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : " ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس " (١) وهذا لعمرى إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة ، فإما من استعبد قلبه صورة مباحة ، فإما من استعبد قلبه صورة محرمة امرأة أو صبى فهذا هو العذاب الذى لاثواب فيه ، وهؤلاء من أقل الناس ثوابا وأعظمهم عذابا ، فإن العاشق لصورة إذا بقى متعلقا بها متعبدا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لايحصه إلا رب العباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن فعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه ، وهؤلاء بالسكارى والمجانين كما قيل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وقيل فى آخر :

---

(١) ورد فى صحيح مسلم والبخارى .

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانيــن

العشق لايستفيق الدهر صاحبه وأنما يصرع المجنون فى حين

ومن أعظم هذا البلاء إعراض القلب عن الله ، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن شيء قط عنده أحلى من ذلك ولا أطيب ولا ألذ .

والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه ، أو خوفا من مكروه ، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح أو بالخوف من الضرر ، قال تعالى فى حق يوسف عليه السلام : { **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين** } (١) فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصورة والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله ، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية له والإخلاص بغلبة نفسه على أتباع هواها ، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى فى قلبه انقهر له هواه بلا علاج ، قال الله تعالى : { **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** } (٢) فإن الصلاه دفعا للمكروه وهو الفحشاء والمنكر ، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله ، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه ، فإن ذكر الله وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها .

فأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع ، والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه ، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل (٣) .

---

(١) ٢٤ يوسف .

(٢) ٤٥ العنكبوت .

(٣) الأمر الضعيف .

ولهذا قال تعالى { **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** } (١) وقال : { **قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى** } (٢) وقال تعالى : { **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم** } (٣) وقال تعالى : { **ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا** } (٤) فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هوَ أزكى للنفس ، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس ، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك ، وكذلك طالب الرياسة والعلو فى الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ، ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم هو تمام محبة المحبوب ، فإذا أحب أنبياء الله وأولياؤه لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم الله لا لغيره ، وقد قال تعالى : { **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** } ،(٥) ولهذا قال الله تعالى : { **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** } (٦) فإن الرسول يأمر بما يحبه الله وينهى عما يبغضه ، ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به ، فمن كان محبا لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبره ويطيعه فيما أمر

---

(١) ٩ الشمس .

(٢) ١٤ الأعلى .

(٣) ٣٠ النور .

(٤) ٢١ النور .

(٥) ٥٤ المائدة .

(٦) ١٣١ آل عمران .

ويتأسى به فيما فعل ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله تعالى ، فجعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ، والجهاد فى سبيله . وذلك لأن الجهاد حقيقة الإجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع مايبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ، وقد قال تعالى : { **قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره** } (١) فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد ، بل قد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " وفى الصحيح : " أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له : يارسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسى ، فقال : لاياعمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالله لأنت أحب إلى من نفسى . فقال : الآن ياعمرَ (٢) .

فحقيقة الحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب ، وهوموافقته فى حبه ما يحب وبغض ما يبغض . والله يحب الإيمان والتقوى ويبغض الفسوق والعصيان ،ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب ، وكلما قويت المحبة فى القلب طلب فعل المحبوبات ، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جزمة فى حصول المحبوبات ، فإذا كان العبد قادرا عليها حصلها ، وإن كان عاجزا عنها فقد ما يقدر عليه من ذلك كان له أجر كأجر الفاعل ، كما قال النبى صلى

---

(١) جاء عند مسلم والبخارى .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

الله عليه وسلم : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا " (١) ، وقال : " إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حسبهم العذر " .

والجهاد هو بذل الوسع والقدرة فى حصول محبوب الحق ودفع مايكرهه الحق ، فاذا ترك العبد ما يقدر عايه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله فى قلبه ، ومعلوم أن المحبوبات لاتنال غالبا إلا باحتمال المكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للرياسة والمال والصور لاينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم فى الدنيا مع مايصيبهم من الضرر فى الدنيا والآخرة ، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل مايرى ذو الرأى من المحبين لغير الله فى حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبته لله إذا كان ما سلكه أولئك هو الطريق الذى يسير به العاقل ، ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبا لله ، قال تعالى : { **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونه كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله** } (٢) نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقا لايحصل بها على المطلوب فمثل هذه الطريق لاتحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة ، فكيف إذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل كما يفعله المتهورون فى طلب الرئاسة والمال والصور فى حب أمور توجب لهم ضررا ولاتحصل لهم مقصودا ، وإنما المقصود الطرق التى يسلكها العاقل لحصول مطلوبه .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ١٦٥ البقرة .

إذا تبين هذا فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية ، وحرية عما سواه ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه .

والقلب فقير بالذل إلى الله من جهتين : من جهة العبادة والعلة الغائية ، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهى العلة الفاعلية ، فالقلب لايصلح ولا يفلح ولايسر ، ولا يلتذ ولايطيب ولايسكن ولايطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ، إذ فيه فقر ذاتى إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة .

وهذا لايحصل له إلا باعانة الله له ، لايقدر على تحصيل ذلك إلا الله ، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة { **إياك نعبد وإياك نستعين** } ، فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادة الله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول وكل ماسواه فإنه يحبه لأجله لايحب شيئا لذاته إلا الله ، فمتى لم يحصل له على هذا لم يكن قد حقق حقيقة " لا إله إلا الله " ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة ، وكان فيه من النقص والعيب بل ومن الآلام والحسرة والعذاب بحسب ذلك ، ولو سعى فى هذا المطلوب فلم يكن مستعينا بالله متوكلا على الله مفتقرا إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ، ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه ، فهو إلهه لا إله له غيره ، وهو ربه لارب له سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين ، فمتى كان محبا لغير الله لذاته أو ملتفتا إلى غير الله أنه يعينه كان عبدا لما أحبه وعبدا لما رجاه بحسب حبه له ورجائه إياه ، وإذا لم يحب لذاته إلا الله وكل ما أحبه سواه فإنما أحبه له . ولم يرج قط شيئاً إلا الله ، وإذا فعل ما فعل من الأسباب أو حصل ما حصل منها كان شاهدا أن الله هو الذى خلقها وقدرها وأن كل من فى السماوات الأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ، وهو فقير إليه ، كان

قد حصل من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك .

والناس فى هذا على درجات متفاوتة لايحصى طرقها إلا الله فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم أتمهم عبودية لله من هذا الوجه .

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذى أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الإستسلام له مستكبر .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : " أن الجنة لايدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من كبر " (١) كما أن النار لايدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فجعل الكبر مقابل الإيمان ، فإن الكبر ينافى حقيقة العبودية ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن قال : " يقول الله : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحدا منهما عذبته " (٢) فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية ، والكبرياء أعلى من العظمة ، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء كما جعـل العظمة بمنزلة الإزار .

ولهذا كان شعار الصلاة والأذان والأعياد هو التكبير ، وكان مستحبا فى الأمكنة العالية كالصفا والمروة ، وإذا علا الإنسان شرفا أو ركب دابة أو نحو ذلك ، وبه يطفأ الحريق وإن عظم ، وعند الأذان يهرب الشيطان ، قال الله تعالى : { **ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى**

---

(١) فى صحيح مسلم والبخارى .

(٢) جاء فى سنن أبى داود وصحيح مسلم .

سيدخلون جهنم داخرين }(١) .

وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غير الله ، فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة ..

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أصدق الأسماء حارث وهمام " (٢) ، والحارث الكاسب الفاعل والهمام فعال من الهم والهم أول الإرادة ، فالإنسان له إرادة دائما ، وكل إرادة فلابد لها من مراد تنتهى إليه ، فلابد لكل عبد من مراد محبوب وهو منتهى حبه وإرادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك فلابد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غيره الله فيكون عبدا لذلك المراد المحبوب إما المال والجاه ، وإما الصور ، وإما مايتخذه إلها من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابا أو غير ذلك مما عبد من دون الله .

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركاً ، وكل مستكبر فهو مشرك ، ولهذا كان فرعون من أعظم الخل استكباراً عن عبادة الله وكان مشركاً ، قال الله تعالى :(٣) { **ولقد أرسلنا موسى بأياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ، وماكيد الكافرين إلا فى ضلال . وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل**

---

(١) ٦٠ غافر .

(٢) ورد فى صحيح مسلم .

(٣) ٢٣ - ٣٥ غافر .

دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد .وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب - إلى قوله - ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا - إلى قوله - كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار } ، وقال تعالى :(١) { وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وماكانوا سابقين } وقال تعالى : (٢) { إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ، إنه كان من المفسدين - إلى قوله - فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كان عاقبة المفسدين } ومثل هذا فى القرآن كثير ، وقد وصف فرعون بالشرك فى قوله : { وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك } (٣) ، بل الاستقراء يدل على أنه كلما استكبر من عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذى هو مقصود القلب بالقصد الأول فيكون مشركا بما استعبده من ذلك ، ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذى لايعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولايفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولايكره إلا مايبغضه الرب ويكرهه ، ولا يوالى إلا من والاه الله ولايعادى إلا من عاداه الله ، ولايحب إلا الله ولايبغض إلا الله ، ولايعطى إلا الله ولايمنع إلا الله ، فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته لله

---

(١) ٢٩ العنكبوت .

(٢) ٤ القصص .

(٣) ١٢٧ الأعراف .

واستغناؤه عن المخلوقات ، وكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر ومن الشرك ، فالشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود ، قال الله تعالى فى النصارى : { **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** } (١) وقال فى اليهود : { **أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون** } (٢) وقال : { **ساصرف عن اياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وان يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا** }(٣).

ولما كان الكبر مستلزما والشرك ضد الإسلام وهو الذنب الذى لايغفره الله قال الله تعالى : { **إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا** } (٤) كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام ، فهو الدين الذى لايقبل الله غير لا من الأولين ولا من الآخرين .

قال نوح عليه السلام : { **فإن توليتم فما سالتكم من أجر ، إن أجرى على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين** } (٥) وقال تعالى فى حق إبراهيم : { **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا**

---

(١) ٣١ التوبه .

(٢) ٨٧ البقرة .

(٣) ١٤٦ الاعراف .

(٤) ١١٦ النساء .

(٥) ٧٢ يونس .

وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربهُ أسلم فقال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون } [١] وقال يوسف عليه السلام : **{ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين }** [٢] وقال موسى عليه السلام : **{ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا : على الله توكلنا }** [٣] وقال تعالى : **{ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا }** [٤] وقالت بلقيس : **{ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين }** [٥] وقال تعالى : [٦]**{ وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون }** وقال تعالى : **{ إن الدين عند الله الإسلام }** [٧] وقال تعالى : **{ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه }** [٨] وقال تعالى : **{ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها }** [٩] .

---

(١) البقرة (١٣٠) .

(٢) ١٠١ يوسف .

(٣) ٨٤ يونس .

(٤) ٤٤ المائدة .

(٥) ٤٤ النمل .

(٦) ٩٦ آل عمران .

(٧) ٨٥ آل عمران .

(٨) ٨٣ آل عمران .

(٩) ٣٨ الزمر .

فذكر الإسلام الكائنات طوعا وكرها ، لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام ، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره وهم مدينون مدبرون ، فهم مسلمون له طوعا وكرها ، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه ، ولا حول ولاقوة إلا به ، وهو رب العالمين ومليكهم ويصرفهم كيف شاء ، وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم ، وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور مأثور فقير محتاج معبد مقهور ، وهو الواحد القهار الخالق البارىء المصور ، وهو إن كان قد خلق ماخلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدر له ، وهذا مفتقر إليه كافتقار هذا ، وليس فى المخلوقات سبب مستقل يفعل ولادفع ضرر ، بل كل ماهو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعونه ، وإلى مايدفع عنه الضرر الذى يعارضه ومايمانعه ، وهو سبحانه وحده الغنى عن كل ماسواه ، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناؤه ويعارضه .

قال تعالى : { **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله . بضر هل هن كاشفات ضره أو أنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون** } (١) وقال تعالى : { **وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قدير** } (٢) ، قال تعالى عن الخليل : { **ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولاأخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا**

---

(١) ١٧ الأنعام .

(٢) ٧٩ الأنعام .

تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها على قومه } .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعو رضى الله عنه : أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله آينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال : إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : { **إن الشرك لظلم عظيم** } ، وإبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين ، حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين ، قال الله تعالى : **{وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماماً ، قالومن ذريتى ، قال لاينال عهدى الظالمين }** [١] فبين أن عهده بالإمامة لايتناول الظالم ، فلم يأمر سبحانه أن يكون الظالم إماما . وأعظم الظلم الشرك قال تعالى : { **إن إبراهيم كان أمة قانتا الله حنيفاً ولم يك من المشركين** } [٢]والأمة هو القدوة بفعل الخير الذى يتم به كمال القدوة الذى يقتدى به ، والله تعالى جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، وإنما بعث الأنبياء بعده بملته ، قال تعالى : { **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** } [٣] وقال تعالى : **{إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين }** [٤] وقال تعالى : { **وما**

---

(١) ١٢٤ البقرة .

(٢) ١٢٠ النحل .

(٣) ١٢٣ النحل .

(٤) ٦٨ آل عمران .

كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين } (١)وقال تعالى : **{وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون }** (٢) .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم خير البرية فهو أفضل الأنبياء بعد النبى صلى الله عليه وسلم وهو خليل الله .

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أنه قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا " وقال : " لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله " يعنى نفسه . وقال : " لايبقى فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر " وقال إن من كان من قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، أفلا تتخذوا القبور مساجد . إنى أنهاكم عن ذلك " وكل هذا فى الصحيح ، وفيه أنه قال قبل موته ، وذلك من تمام رسلاته ، فإن فى ذلك تمام تحقيق مخالته لله تعالى التى أصلها محبة الله تعالى العبد خلافاً للجهمية .

وفى ذلك تحقيق توحيد الله ، وأن لايعبوا إلا الله رداً على أشباه المشركين ، وفيه رد على الرافضة الذين يبخسون الصديق حقه ، وهم أعظم المنتسبين إلى القبلة إشراكا بالبشر .

والخلة هى كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ، ومن الرب

---

(١) ٦٧ آل عمران .

(٢) ١٣٥ البقرة .

سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه ..

ولفظ " العبودية " يتضمن كمال الذل وكمال الحب ، فإنهم يقولون قلب متيم إذا كان متعبدا للمحبوب ، والتيم التعبد ، وتيم الله عبده ، وهذا أعلى الكمال حصل لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم لهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل ، إذ الخلـــة لاتحتمل الشركة ، فإنه كما قيل في المعنى :

قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليـــلا

بخلاف أصل الحب فإنه صلى الله عليه وسلم قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامة : " اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما " ، وسأله عمرو بن العاص : " أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . قال : فمن الرجال ؟ قال أبوها " . وقال لعلى رضى الله عنه : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله " وأمثال ذلك كثير .

وقد أخبر تعالى أنه يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المطهرين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وقال : { **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه** } (١) فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له حتى قال : { **والذين آمنوا أشد حبا لله** } (٢) .

وأما الخلة فخاصة ، وقول بعض الناس إن محمداً حبيب الله وإبراهيم خليل الله وظنه أن المحبة فوق الخلة قول ضعيف ، فإن محمداً أيضا خليل الله كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة المستفيضة .

---

(١) ٥٤ المائدة .

(٢) ١٦٥ البقرة .

وما يروى أن العباس يحشر بين حبيب وخليل أمثال ذلك كأحاديث موضوعة لاتصلح أن يعتمد عليها .

وقد قدمنا أن محبة الله محبة ما أحب ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الأيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا الله ،ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار " (١) أخبر صلى الله عليه وسلم أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان لأن وجود الحلاوة بالشىء يتبع المحبة له ، فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم - كما يقوله من المتفلسفة والأطباء - فقد غلط فى ذلك غلطاً بيناً ، فإن الإدارك يتوسط من اللذة والمحبة ، فالإنسان مثلا يشتهى الطعام فإذا أكله حصله له عقيب ذلك اللذة ، فاللذة والمحبة ، فالانسان مثلا يشتهى الطعام فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة ، فاللذة تتبع النظر إلى الشيء فإذا نظر إليه التذ ، واللذة التى تتبع النظر ليست نفس النظر ، وليست هى رؤية الشيء بل تحصل عقيب رؤيته ، قال تعالى : { **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين** } (٢) وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والألم من فرح وحزن وأمثال ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب أو بالشعور بالمكروه ، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن .

فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح مايجده المؤمن الواجد لحلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك بثلاثة أمور :

تكميل هذه المحبة ، وتفريعها ، ودفع ضدها ..

---

(١) ورد فى صحيح مسلم والبخارى .

(٢) ١٧١ الزخرف .

فتكملها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لايكتفى فيها بأصل الحب بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم .

وتفريعها أن يحب المرء لايحبه إلا الله .

ودفع ضده أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهية الإلقاء فى النار .

فإذا كان محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب المؤمنين الذين يحبهم الله لأنه أكمل الناس محبة لله وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله ، والخلة ليس فيها لغير الله نصيب ، بل قال : " لو كنت متخذا خليلا من أهل الأرض لأتخذت أبا بكر خليلا (١) علم مزيد مرتبة الخلة على مطلق المحبة .

والمقصود هو أن الخلة والمحبة لله تحقيق عبوديته وإنما يغلط فى هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط لامحبة معه ، وان المحبة فيها انبساط فى الأهواء أو إذلال لاتحتمله الربوبية ، ولهذا يذكر عن ذى النون أنهم تكلموا عند فى مسألة المحبة فقال : أمسكوا عن هذه المسألة لاتسمعها النفوس فتدعيها ، فكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام فى المحبة بلاخشية . وقال من قال من السلف من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق (٢) ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء (٣) ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى(٤) ، ومن عبده بالحب والخوف

---

(١) متفق عليه كل الأسانيد .

(٢) هو الكفر .

(٣) انظر الشهرستانى .

(٤) هم الذين عارضوا على بن أبى طالب فى قصة الحكم مع معاوية على الخلافة .

والرجاء فهو مؤمن موحد ، ولهذا وجد فى المتأخرين من انبسط فى دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الربربية التى لا تصلح إلا إلى الله ، ويدعى أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ، أو يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا الله لا يصلح للأنبياء والمرسلين .

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ ، وسببه ضعف تحقيق العبودية التى بينها الرسل وحررها الأمر والنهى الذى جاءوا به ، بل ضعف العقل الذى به يعرف العبد حقيقته ، وإذا ضعف وقل العلم بالدين وفى النفس محبة انبسطت النفس بحمقها فى ذلك كما ينبسط الإنسان فى محبة الإنسان مع حمقه وجهله ، ويقول : أنا محب فلا أوخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل ، فهذا عين الضلال ، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قال الله تعالى : { **قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** } (١) فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضى أنهم غير محبوبين ولامنسوبين إليه بنسبة البنوة ، بل يقتضى أنهم مربوبون مخلوقون ، فمن كان الله يحبه إستعمله فيما يحبه ، ومحبوبه لايفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتب منه فإن الله يبغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير ، إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ومن ظن أن الذنوب لاتضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لايضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه ، ولوتدبر الأحمق ما قص الله فى كتابه من قصص أنبيائه وماجرى لهم من التوبة والاستغفار وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذى فيه تمحيص لهم

---

(١) ١٨ المائدة .

وتطهير بحسب أحوالهم علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقاما فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عرافاً بمصلحته ولا مريدا لها بل يعمل بمقتضى الحب وإن كان جهلاً وظلما كان ذلك سببا لبغض المحبوب له ونفوره عنه بل لعقوبته .

وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله أنواعا من أمور الجهل بالدين : إما من تعدى حدود الله ، وإما من تضييع حقوق الله ، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التى لاحقيقة لها كقول بعضهم : أى مريد لى ترك فى النار أحداً فأنا منه برىء فقال الآخر : أى مريد لى ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فإنه برىء .

فالأول جعل مريده يُخرج كل من فى النار ..

والثانى جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار .

ويقول بعضهم : إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لايدخلها أحد .

وأمثال ذلك من الأقوال التى تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين ، وهى إما كذب عليهم وإما غلط منهم ..

ومثل هذا قد يصدر فى حال سكر وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان أو يضعف حتى لايدرى ما قال ، والسكر هو لذة مع عدم تمييز ، ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام . والذين توسعوا من الشيوخ فى سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم ولهذا أنزل الله المحبة يمتحن بها المحب فقال : **{إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله }** (١) فلا يكون محبا له إلا من

---

(١) ٣١ آل عمران .

يتبع رسوله ، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية ، وكثير ممن يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسننه ويدعى من الخيالات ما لايتسع هذا الموضع لذكره ، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسننه وطاعته ، بل قد جعل محبة الله ومحبة رسوله الجهاد فى سبيله ، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به ، وكما بغض ما نهى الله عنه ، ولهذا قال فى وصفه من يحبهم ويحبونه : **{أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله }** (١) .

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها ، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم ، وأكمل هذه الأمة فى ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل . فأين هذا من قوم يدعون المحبة وكلام بعض الشيوخ : المحبة نار تحرق فى القلب ما سوى مراد المحبوب ، وأراوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ولايمكن أحدا أن يحب كل موجود ، بل يحب مايلائمه وينفعه ، ويبغض ما ينافيه ويضره ، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم ، فهم يحبون مايهوونه كالصور والرياسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين أن هذا من محبة الله ، ومن محبة الله بعض ما يبغضه الله ورسوله وجهاد أهله بالنفس والمال .

وأصل ضلالهم أن هذا القائل الذى قال : أنّ المحبة نار تحرق ماسوى مراد المحبوب ، قصد بمراد الله تعالى الإرادة الدينية الشرعية التى هى بمعنى محبته ورضاه ، فكأنه قال تحرق من القلب ماسوى المحبوب الله ،

---

(١) ٥٤ المائدة .

وهذا معنى صحيح ، فإن قال من تمام الحب أن لايحب إلا مالايحب الله فإذا أحببت المحبوب كانت المحبة ناقصة ، وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه ، فإن لم أوافقه فى بغضه وكراهته وسخطه لم أكن محبا بل محبا لما يبغضه .

فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله ، وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعى محبة الله ناظراً إلى عموم ربوبيته أو متبعا لبعض البدع المخالفة لشريعته ، فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله بل قد تكون دعوى هؤلاء شرا من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به فى الدرك الأسفل من النار . كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شراً من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم .

وفى التوراة والإنجيل من محبة الله ماهم متفقون عليه حتى إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس .

ففى الإنجيل أن المسيح قال أعظم وصايا المسيح أن تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك . والنصارى يدعون قيامهم بهذه المحبة ، وأن ماهم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك ، وهم برآء من محبة الله إذ لم يتبعوا ما أحبه بل اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، والله يبغض الكافرين ويمقتهم ، ويلعنهم ، وهوسبحانه يحب من يحبه ، لايمكن أن يكون العبد محبا لله والله تعالى غير محب له ، بل يقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له ، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم كما فى الحديث الصحيح الإلهى عن الله تعالى أنه قال : " من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة " (١) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنهم .

وقد أخبر سبحانه أنه يبح المتقين والمحسنين والصابرين ،ويحب التوابين ويحب المتطهرين ، بل هو يحب من فعل ما أمر به ن واجب ومستحب كما فى الحديث الصحيح : " لايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به " (١) الحديث . ،كثير من المخطئين الذين اتبعوا أشياء فى الزهد والعبادة وقعوا فى بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى لمحله لله مع مخالفة شريعته وترك الجاهدة فى سبيله ونحو ذلك ، ويتمسكون فى الدين الذى يتقربون به إلى الله بنحو ما تمسك به النصارى من الكلام المتشابه والحكايات التى لايعرف صدق قائلها ، ولو صدق لم يكن قائلها معصوما ، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم دينا كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين لهم دينا ، ثم إنهم ينتقصون العبودية ويدعون أن الخاصة يتعدونها ، كما يدعى النصارى فى المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ما تثبته النصارى فى المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ما تثبته النصارى فى المسيح وأمه إلى أنواع أخر يطول شرحها فى هذا الموضع .

وإنما دين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه ، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لره وتكمل محبة الرب لعبده ، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا ، وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبوديةلغير الله بحسب ذلك ، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك ، وكل محبة لاتكون لله فهى باطلة ، وكل عمل لايراد به وجه الله فهو باطل ، فالدنيا ملعونة ملعون فيها إلا ما كان لله ، ولايكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع ، وكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله .

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنهما وذكره الحافظ ابن رجب فى " جامع العلوم والحكم " .

وكل عمل لايوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لايكون لله إلا ماجمع الوصفين : أن يكون له وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله ، وهو الواجب والمستحب ، كما قال تعالى : { **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا** } (١) فلابد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ، ولابد أن يكون خالصا لوجه الله ، قال تعالى : { **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عنده ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون** } (٢) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " (٣) وقال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو أمـــرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه " (٤) .

وهذا الأصل هو أصل الدين ، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين ، وبه أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وإليه دعا الرسول صلى الله عليه وسلم وعليه جاهد وبه أمر وفيه رغب ، وهو قطب الدين الذى تدور عليه رحاه .

والشرك غالب على النفوس ، وهو كما جاء فى الحديث : "وهو فى هذه

---

(١) ١١٠ الكهف .

(٢) ١١٢ البقرة .

(٣) رواه أحمد ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم .

(٤) رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم .

الأمة أخفى من دبيب النمل ؛ (١) وفى حديث اخر : " قال أبو بكر : يارسول الله كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل ؟ فقال : ياأبا بكر ، ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله ، قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرت بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ، وكان عمر يقول فى دعائه : " الله اجعل عملى كله صالحا ، وجعله لوجهك خالصا ، ولاتجعـــل لأحد فيه شيئا " .

وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ، ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له وإخلاص دينها له ، كما قال شداد بن أوس : يابقايا العرب ، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء ، والشهوة الخفية ، قيل لأبى داود السجستانى : وما الشهوة الخفية ، فقال : حب الرئاسة .

وعن كعب بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ماذئبان جائعان أرسلا فى حظيرة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " (٢) .

قال الترمذى حديث حسن صحيح . فبين صلى الله عليه وسلم أن الحرص على المال والشرف فى فساد الدين لاينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك يبين أن الدين السليم لايكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته لم شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدم عليه ، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء

---

(١) رواه البزار بلفظ " الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا " وفى سنده عبد الأعلى بن أعين وهو ضعيف .

(٢) ورد فى المسند .

كما قال تعالى : { **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين**]. (١) فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره ، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاص الدين له ، وذلك يقتضى انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفا منه راغباً راهباً . كما قال تعالى : { **من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** } (٢) إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه أو حصول مرهوبه فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء ، قال تعالى : { **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عـــذاب ربك كان محذورا** } (٣) .

وإذا كان العبد مخلصا لله اجتباه ربه فأحيي قلبه واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ، ويخاف من ضد ذلك ، بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فإن فيه طلبا وإرادة وحبا مطلقا فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه ، كالغصن أى نسيم مر بعطفه أماله .

فتارة تجذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيراً عبداً لمن لو أتخذه هو عبداً له لكان ذلك نقصاً وعيباً وذماً .

وتارة يجذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ، ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ، يعادى من يذمه ولو بالحق .

---

(١) ٢٤ يوسف .

(٢) ٣٣ ق .

(٣) ٥٧ الأسراء .

وتارة يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب ، والقلوب تهواها ، فيتخذ إلهه هواه ، ويتبع هواه بغير هدى من الله .

ومن لم يكن مخلصا لله عبدا له قد صار قلبه مستعبداً لربه وحده لاشريك له بحيث يكون هو أحب إليه مما سواه ، ويكون دليلا خاضعا له وإلا استعبدته الكائنات ، واستولت على قلبه الشياطين ، وكان من الغاوين إخوان الشياطين ، وصارفيه من السوء والفحشاء مالايعلمه إلا الله ، وهذا أمر ضرورى لا حيلة فيه .

فالقلب إن لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه وإلا كان مشركا { **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون** } (١) .

وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة للحنفاء المخلصين أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له ، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة للمشركين المتبعين أهواءهم ، قال تعالى فى إبراهيم : { **ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**(٢)، وقال فى فرعون وقومه:{ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرفون، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** }(٣) ولهذا يصير أتباع فرعون أولا إلى أنهم لايميزون بين ما يحبه الله

---

(١) ٣٢ الروم .

(٢) ٧٢ الأنبياء .

(٣) ٤١ القصص .

ويرضاه وبين ما قدره وقضاه ، بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة ، ثم فى آخر الأمر لايميزون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود هذا وجود هذا ، ويقول محققوهم : الشريعة فيها طاعة ومعصية والحقيقة فيها معصية بلا طاعة والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية ، وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق وأنكروا تكليمه لعبده موسى وما أرسله به من الأمر والنهى .

فتارة تجذبه الصور المحرمة فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك نقصاً وعيباً وذماً .

وتاره يجذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة ، ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ، ويعادى من يذمه ولو بالحق .

وتاره يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب ، والقلوب تهواها ، فيتخذ إليـــه هواه ، ويتبع هواه بغير هدى من الله .

ومن لم يكن مخلصاً لله عبدا له قد صار له مستعبداً لربه وحده لاشريك له بحيث يكون هو أحب إليه مما سواه ، ويكون ذليلا خاضعا له وإلا استعبدته الكائنات ، واستولت على قلبه الشياطين ، وكان من الغاوين إخوان الشياطين لا حيلة فيه .

فالقلب إن لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضاً عما سواه وإلا كان مشركا { **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، ومن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون** } [1] .

---

(١) ٣٢ الروم .

وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل ابراهيم أئمة للحنفاء المخلصين أخل محبة الله وعبداته وإخلاص الدين له ، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة للمشركين المتبعين أهواءهم ، قال تعالى فى إبراهيم : { **ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأحبنا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** } [١] ، وقال فى فرعون وقومه : { **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرفون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** } [٢] ولهذا يصير أتباع فرعون أولا إلى أنهم لا يميزون بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ماقدره وقضاه ، بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة ، ثم فى آخر الأمر لايميزون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود هذا وجود هذا ، ويقول محققوهم : الشريعة فيها طاعة ومعصية والحقيقة فيها معصية بلا طاعة والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية ، وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق وأنكروا تكليمه لعبده موسى وما أرسله به من الأمر والنهى .

وأما إبراهيم وآل إبراهيم والحنفاء والانبياء فهم يعلمون أنه لابد من الفرق بين الخالق والمخلوق ، وبين الطاعة والمعصية ، وأن العبد كلما ازداد تحقيقا ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له وإعراضه عن عباده غيره وطاعه غيره ، وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وخلقه والخليل يقول : { **أفرأيتم ماكنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو إلى رب العالمين** }[٣] .

ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشايخ كما فعلت النصارى ، مثال ذلك اسم الفناء فان الفناء ثلاثة أنواع : نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء ، ونوع للقاصرين من الأولياء والصالحين ، ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين .

---

(١) ٧٢ الأنبياء .

(٢) ٤١ القصص .

(٣) ٧٦ الشعراء .

فأما الأول فهو الفناء عما سوى الله بحيث لايحب إلا الله ولا يعبد إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يطلب غيره ، وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد : أريد أن لا أريد إلا مايريد أى المراد المحبوب المرضى ، وهو المراد بالإرادة الدينية ، وكمال العبد أن لايريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه ، وهو مأمر به أمر أيجاب أو استحباب ، ولا يحب إلا مايحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين ، وهذا معنى قولهم فى قوله : { **إلا من أتى الله بقلب سليم** }(١) قالوا هو السليم مما سوى الله أو مما سوى عبادة الله أو مما سوى إرادة الله أو مما سوى محبة الله ، فالمعنى واحد ، وهذا المعنى إن سمى فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره ، وباطن الدين وظاهره .

وأما المعنى الثانى فهو الغنى عن شهود السوى ، ولهذا يحصل لكثير من السالكين ، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ماتعبد وترى غير ماتقصد ، لايخطر بقلوبهم غير الله بل ولايشعرون به ، كما قيل فى قوله تعالى : (٢) { **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها** } قالوا فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى .

وهذا كثير يعرض لمن دهمه أمر من الأمور : إما حب وإما خوف وإما رجاء ، يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه ، بحيث يكون عند استغراقه فى ذلك لايشعر بغيره ، فإذا قوى على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وبمذكوره

---

(١) ٨٩ الشعراء .

(٢) ١٠ القصص .

عن ذكره . وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن وهى المخلوقات المعبدة فمن سواه ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى ، والمراد فناؤه فى شهود العبد وذكره ، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها ، وإذا قوى هذا وضعف المحب حتى اضطرب فى تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه ، كما يذكر أن رجلا ألقى نفسه فى اليم فألقى محبه نفسه خلفه فقال : أنا وقعت فما أوقعك خلفى ؟ فقال : غبت بك عنى حتى ظننت أنك أنى . وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد وأن المحب اتحد بالمحبوب حتى لايكون بينهما فرق فى نفس وجودهما ، وهذا غلط ، فان الخالق لايتحد به شيء اصلا بل لايتحد شيء بشيء إلا إذا استحالا أو فسدا أو حصل من أحادهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هذا كما اتحد الماء واللبن والماء والخمر ونحو ذلك ، ولكن يتحد المراد والمحبوب والمكروه ويتفقان فى نوع الإرادة والكراهة فيحب هذا ما يحب هذا ويبغض هذا ما يبغض هذا ويرضى ما يرضى ويسخط مايسخط ويركه ما يكره ويوالى من يوالى ويعادى من يعادى . وهذا الفناء كله فيه نقص ، وأكابر الأولياء - كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار - لم يقعوا فى هذا الفناء فضلاً عمن فوقهم من الأنبياء ، وإنما وقع شيء من هذا من الصحابة . وكذا ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان ، فإن الصحابة رضى الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت فى الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم أو يحصل لهم غشاء أو ضعف أو سكر أو فناء أو وله أو جنون . وإنما كان مبادى هذه الأمور فى التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن ومنهم من يموت ، كأبى جهير الضرير وزرارة بن أبى أوفى قاضى البصرة ، وكذلك صار فى شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه حتى يقول فى تلك الحال من الأقوال ماإذا صحا عرف أنه غالط فيه ، كما يحكى عن ذلك أبى يزيد (١) وأبى الحسن

---

(١) المقصود بالبسطامى .

النورى وأبى بكر الشبلى وأمثالهم ، بخلاف أبى سليمان الدارانى ومعروف الكرخى وفضيل بن عياض ، بل وبخلاف الجنيد وأمثاله ممن كانت عقولهم وتمييزهم تصحبهم فى أحوالهم فلايقعون فى الفناء والسكر ونحوه بل الكمل تكون عقولهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ماهى عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله ، مديرة بمشيئته ، مسبحة له ، قنتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما فى قلوبهم من إخلاص الدين وتجريد التوحيد والعبادة له وحده لاشريك له .

وهذه الحقيقة التى دعا إليها القرآن وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكمل من أهل العرفان ونبينا صلى الله عليه وسلم إمام هؤلاء وأكملهم ، ولهذا لما عرج به إلى السماوات ، وعاين ماهناك من الآيات ، وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة ، وأصبح فيهم وهو لم يتغير حاله ولا ظهر عليه ذلك ، بخلاف ماكان يظهر على موسى عليه السلام من التغشى ، صلى الله عليهم أجمعين .

وأما النوع الثالث مما قد يسمى فناء فهو أن يشهد أن لاموجود إلا الله ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوقات فلا فرق بين الرب والعبد ، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين فى الحلول والإتحاد ، والمشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم : ما أرى غير الله ، أو غيره لاأنظر إلى غير الله أو نحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربا غيره ولاخالقا غيره ولا مدبراً ولا إله غيره ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفا منه أو رجاء له ، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب ، فمن أحب شيئا أو رجاه أو خافه التفت إليه، فإذا لم يكن فى قلبه محبة ولارجاء له ولا خوف منه ولا بغض له والغير ذلك من تعلق القلب له لم يقصد القلب أن يلتفت إليه ولا أن ينظر إليه ولا أن يراه وإن رآه اتفاقا رؤية مجردة كان كمن رأى حائطا ونحوه مما ليس فى قلبه تعلق به .

والمشايخ الصالحون رضى الله عنهم يذكرون شيئا من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله بحيث لايكون العبد ملتفتا إلى غير الله ولا ناظراً إلى ما سواه ، لاحباً له ولا خوفاً منه ولا رجاء له ، بل يكون القلب فارغا من المخلوقات خاليا منها لاينظر إليها إلا بنور الله .

فبالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش وبالحق يمشى ، فيجب منها ما يحبه الله ويبغض منها مايبغضه الله ويوالى منها ما والاه الله ويعادى منها ما عاداه الله ويخاف الله فيها ولا يخافها فى الله ، فهذا هو القلب السليم الحنيفى الموحد المسلم المؤمن العارف الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين وتحقيقهم وتوحيدهم .

وأما النوع الثالث وهو الفناء فى الوجود فهو تحقيق آل فرعون وتوحيدهم ومعرفتهم كالقرامطة وأمثالهم . وهذا النوع الذى عليه أتباع الأنبياء هو الفناء المحمود الذى يكون صاحبه ممن أثنى الله عليهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين ، وليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول أن الذى أراه بعينى من المخلوقات ، وهو رب الأرض والسماوات ، فإن هذا لا يقوله إلا من هو فى غاية الضلال والفساد ، إما فساد العقل وإما فساد الاعتقاد ، فهو متردد بين الجنون والإلحاد ، وكل المشايخ الذين يقتدى بهم فى الدين متفقون على ماتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مبيان للمخلوقات ، وليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته ، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث وتمييز الخالق عن المخلوق ، وهذا فى كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا ، وقد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات ، وأن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات فيظنه خالق الأرض والسماوات ، لعدم التمييز والفرقان فى قلبه ، بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس التى فى السماء . وهم قد تكلموا

فى الفرق والجمع ، ويدخل فى ذلك من العبارات المختلفة نظير مادخل فى الفناء ، فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة فى المخلوقات يبقى قلبه متعلقا بها مشتتاً نظراً إليها وتعلقاً بها ، إما محبة وإما خوفا وإما رجاء ، فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبداته وحده لاشريك له ، فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين ، فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ورجاؤه لربه واستعانته بربه ، وفى هذه الحال قد لايسع قلبه النظر إلى المخلوق ليفرق بين الخالق والمخلوق ، وقد يكون مجتمعا على الحق معرضا عن الخلق نظرا وقصداً ، وهو نظير النوع الثانى من الفناء ، ولكن بعد ذلك الفرق الثانى وهو أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله مدبرة بأمره ، ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها وخالقها ومالكها فيكون - مع اجتماع قلبه على الله إخلاصاً ومحبة وخوفاً ورجاء واستعانة وتوكلا على الله وموالاة فيه ومعاداة فيه وأمثال ذلك - ناظراً إلى الفرق بين الخالق والمخلوق مميزا بين هذا وهذا يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وأنه هو الله لا إله إلا هو ، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم ، وذلك واجب فى علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته وفى حال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته ، وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فإنها تنفى عن قلبه إلهية ما سوى الحق ، وتثبت فى قلبه إلهية الحق ، فيكون نافياً إلهية كل شيء من المخلوقات مثبتاً لإلهية رب العالمين رب الأرض والسماوات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه ، فيكون مفرقاً فى علمه قصده ، فى شهادته وإرادته، فى معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق ، بحيث يكون عالماً بالله ذاكراً له عارفاً به ، ومع ذلك عالماً لخلقه وانفراده عنهم وتوحده دونهم ، ويكون محبا لله معظما له عابداً له راجياً له خائفاً منه ، محباً فيه ، موالياً فيه معدياً فيه مستعيناً به متوكلا عليه ممتنعاً عن عبادة غيره والتوكل عليه

والاستعانة به والخوف منه والرجاء له والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى . واقراره بإلهية الله دون ماسواه متضمن لإفراده بربوبيته ، وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره ، فحينئذ يكون موحداً لله .

ويبين ذلك أن أفضل الذكر لاإله إلا الله كما رواه الترمذى وابن أبى الدنيا وغيرهما مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله " (١) .

وفى الموطأ وغيره عن طلحة بن عبيد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لإاله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير " (٢) .

ومن زعم أن هذا ذكر العامة وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر فهم ضالون مغلطون ، واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله : { **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** } (٣) من أبين غلط هؤلاء ، فإن اسم الله مذكور فى الأمر بجواب الاستفهام وهو قوله : { **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** } (٤) فالاسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الأستفهام كما فى نظائر ذلك ، يقال : من جاء ؟ فتقول زيد : وأما الاسم

---

(١) ورد فى سنن الترمذى .

(٢) السهل الواضح (ورد فى هذا الكتاب) .

(٣) ٩١ الأنعام .

(٤) ٩١ الأنعام .

المفرد مظهراً أو مضمراً فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولانهى ، لم يذكر أحد ذلك من سلف الأمة ولا شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعطى القلب بنفسه معرفة مفيدة ولاحالا نافعا ، وإنما يعطيه تصورا مطلقا لايحكم عليه بنفى ولا إثبات ، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله مايفيد بنفسه وإلا لم يكن فيه فائدة ، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره ، وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر فى فنون من الإلحاد وأنواع من الاتحاد كما قد بسط فى غير هذا الموضع ، ومايذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال : أخاف أن أموت بين النفى والاثبات ، حال لايقتدى فيها بصاحبها ، فإن فى ذلك من الغلط ما لاخفاء فيه ، إذ لو مات العبد فى هذه الحال لم يمت إلا على ماقصده ونواه ، إذ الأعمال بالنيات ، وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت " لا إله إلا الله " (١) .

وقال : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " (٢) ولوكان ماذكره محذورا لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت فى أثنائها موتاً غير محمود ، بل كان يلقن ماختاره من ذكر الاسم المفرد ، والذكر بالاسم المفرد أو المضمر أبعد عن السنة وأدخل فى البدعة وأقرب إلى اضلال الشيطان ، فإن من قال ياهو ياهو أو هو هو ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلى مايصوره قلبه ، والقلب قد يهتدى وقد يضل . وقد صنف صاحب " الفصوص " (٣) كتابا سماه " كتاب الهو " وزعم بعضهم أن قوله : { وما

---

(١) رواه مسلم والنسائى وابو داود .

(٢) رواه أبو داود والحاكم .

(٣) وهذا الكتاب المطبوع .

يعلم تأويله إلا الله } [١] معناه ومايعلم تأويله هذا الاسم الذى هو الهو ، وقيل : هذا وإن كان مما اتفق المسلمون بل العقلاء على أنه من أبين الباطل فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء ، حتى قلت مرة لبعض من قال بشيء من ذلك : لو كان هذا كما قلته لكتبت وما يعلم تأويل " هو " منفصلة . ثم كثيراً مايذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل الله بقوله سبحانه : **{ قل الله ثم ذرهم }** [٢] ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد ، وهذا غلط باتفاق أهل العلم ، فإنه قوله قل الله معناه الله الذى انزل الكتاب الذى جاء به موسى ، وهذال جواب لقوله : **{ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه به قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا اباؤكم قل الله }** [٣] أى الله أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، رد بذلك قول من قال ما أنزل الله على بشر من شيء فقال : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، ثم قال : الله أنزله ثم ذر هؤلاء المكذبين فى خوضهم يلعبون .

ومما يبين ما تقدم ماذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاما ، لايحكون به ما كان قولا ، فالقول لايحكى به إلا كلام تام أو جملة اسمية أو فعلية ، ولهذا يكسرون " إن " إذا جاءت بعد القول ، فالقول لايحكى به اسم ، والله تعالى لم يأمر أحداً بذكر اسم مفرد لا شرع للمسلمين اسما مفرداً أو مجرداً ، والاسم المفرد المجرد لايفيد الإيمان باتفاق أهل الإسلام ، ولايؤمر به فى شيء من العبادات ولا فى شيء من المخاطبات .

---

(١) وهذا الكتب المطبوع .

(٢) ٧ آل عمران .

(٣) ٩١ الأنعام .

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد مايذكر أن بعض الأعراب مر بمؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله بالنصب فقال : ماذا يقول هذا ؟ هذا هو الاسم ، فأين الخبر عنه الذى يتم به الكلام ؟

ومافى القرآن من قوله : **{ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا }** (١) وقوله : **{ سبح اسم ربك الأعلى }** وقوله : **{ فسبح باسم ربك العظيم }** (٢) ونحو ذلك لايقتضى ذكره مفردا ، بل فى السنن أنه لما نزل قوله **{ فسبح باسم ربك العظيم }** (٣) قال " اجعلوها فى ركوعكم " (٤) ولما نزل قوله **{ سبح اسم ربك الأعلى }** قال " اجعلوها فى سجودكم " فشرع لهم ان يقولوا فى الركوع " سبحان ربى العظيم " وفى السجود " سبحان ربى الأعلى " (٥) .

وفى الصحيح أنه كان يقول فى ركوعه : "سبحان ربى العظيم " وفى سجوده : " سبحان ربى الأعلى " وهذا معنى قوله " اجعلوها فى ركوعكم وسجودكم " باتفاق المسلمين ، فتسبح اسم ربه الأعلى ذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد .

كما فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل الكلام بعد

---

(١) ٨ المزمل .

(٢) ١٤ الزعلى .

(٣) ٧٤ الواقعه .

(٤) رواه أحمد فى المسند . وأبو داود وابن ماجه .

(٥) الذى فى الصحيح بلفظ " سبوح قدوس رب الملائكة والروح " ، وأما هذا فرواه أحمد وأبو داود وبان ماجه وهو صحيح .

القرآن أربع ، وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر " .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم " (١) .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قال فى يومه مائة مرة لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثل ما قال أو زاد عليه " (٢) ، " ومن قال فى يومه مائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم حطت عليه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر " (٣) .

وفى الموطأ وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (٤) .

وفي سنن ابن ماجه وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل الذكر إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله " (٥) ومثل هذه الأحاديث كثيرة

---

(١) رواه مسلم بلفظ " أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ... " ورواه ابن حبان بلفظ " أفضل الكلام " وجملة بعد القرآن – ليست عندهما .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) رواه مالك مرسلا والترمذى .

(٥) رواه الترمذى وهو حديث حسن .

فى أنواع ما يقال من الذكر والدعاء ، وكذلك فى القرآن كقوله تعالى : **{ولا تأكلوا مالم يذكر إسم الله عليه}** (١) وقوله : **{ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه }** (٢) إنما هو قوله بإسم الله ، وهذا جملة تامة وما اسمية على أظهر قولى النجاة أو فعلية ، والتقدير : ذبحى بسم الله أو أذبح بسم الله ، وكذلك قول القارئ بسم الله الرحمن الرحيم فتقديره قرائتى بسم الله والأول أحسن لأن الفعل كله مفعول باسم الله ليس مجرد ابتدائه ، كما أظهر المشمر فى قوله : **{ اقرأ باسم ربك الذى خلق }** وفى قوله : **{بسم الله مجراها ، ومرساها }** (٣) وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن يذبح فليذبح باسم الله " ومن هذا الباب قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لربيبه عمر بن أبى سلمة : " سم الله وكل بيمينك وكل ما يليك " فالمراد أن يقول باسم الله ليس المراد ذكر الاسم مجردا ، وكذلك قوله فى الحديث الصحيح لعدى بن حاتم إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل " (٤) وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل الرجل منزله فذكر إسم الله عند دخوله وعند خروجه وعند عامه قال الشيطان لامبيت لكم ولا عشاء (٥) وأمثال هذا .

وكذلك ماشرع للمسلمين فى صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر

---

(١) ١٢١ الأنعام .

(٢) ٤ المائدة .

(٣) ٤١ هود .

(٤) رواه مسلم والبخارى .

(٥) رواه مسلم .

الله تعالى إنما هو بالجملة التامة ، كقول المؤذن " الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله " وقول المصلي : الله أكبر ، سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى الأعلي ، سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، التحيات لله " وقول الملبى " لبيك اللهم لبيك " وأمثال ذلك ، فجميع ماشرعه الله من الذكر إنما هو كلام تام لا اسم مفرد لامظهر ولامضمر ، وهذا هو الذى يسمى فى اللغة " كلمة " كقوله : " كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن " وقوله : " أفضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

" ألا كل شيء ما خلا الله باطل "

ومنه قوله تعالى : { **كبرت كلمة تخرج من أفواههم** } [١] الآية وقوله : {**وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا** } [٢] وأمثال ذلك ممااستعمل فيه لفظ "الكلمة" من الكتاب والسنة بل وسائر كلام العرب فإنما يراد الجملة التامة ، كما كانوا يستعملون الحرف فى الاسم فيقولون هذا حرف غريب أى لفظ الاسم غريب .

وقسم سيبويه الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم وفعل ، وكل من هذه الأقسام يسمى حرفاً لكن خاصة الثالث أنه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهى أسماء ، ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف [٣] ، وقد سأل

---

(١) ٥ الكهف .

(٢) ١١٥ الأنعام .

(٣) رواه الترمذى بلفظ " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ..." وقال : حديث حسن صحيح غريب .

الخليل أصحابه عن النطق بحرف الزاى من زيد فقالوا زاى فقال : جئتم بالاسم وإنما الحرف " ز" . ثم النحاة اصطلحوا على أن هذا المسمى فى اللغة بالحرف يسمى كلمة ، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل كحروف الجر ونحوها وأما ألفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ وتارة باسم ذلك الحرف ، ولما غلب هذا الإصطلاح صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا فى لغة العرب ، ومنهم من يجعل لفظ " الكلمة" فى اللغة لفظا مشتركا بين الاسم مثلا وبين الجملة ، ولايعرف فى صريح اللغة من لفظ الكلمة إلا الجملة التامة .

والمقصود هنا أن المشروع فى ذكر الله هو ذكره بجملة تامة ، وهو المسمى بالكلام الواحد منه بالكلمة ، هو الذى ينفع القلوب ويحصل به الثواب والأجر والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخضيته وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية ، وأما اللاقتصار على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له فضلا عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين ، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات ، وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

وجماع الدين أصلان : أن لايعبد إلا الله ، وأن لايعبد إلا بما شرع لايعبد بالبدع كما قال تعالى : { **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا** } [١] وذلك تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله .

ففى الأولى أن لانعبد إلا إياه ..

---

(١) ١١٠ الكهف .

وفى الثانية أن محمداً هو رسوله عنه ، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره و قد بين لنا مانعبد الله به ، ونهانا عن محدثات الأمور ، وأخبرنا أنها ضلالة ، قال الله تعالى : **{ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون }** (١) وكما أنا مأمورون أن لانخاف إلا الله ولا نتوكل إلا على الله ولا نرغب إلا فى الله ولانستعين إلا بالله وأن لاتكون عبادتنا إلا الله فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيع ونتأسى به

فالحلال ماحلله الله والحرام ماحرمه والدين ماشرعه ، قال الله تعالى ورسوله **{ ولو أنهم رضوا ماآتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا من فضله إنا إلى الله راغبون }** (٢) فجعل الإيتاء لله والرسول ، كما قال الله تعالى : **{ وما آتاكم الرسول فخذوه . ومانهاكم عنه فانتهوا }** (٣) وجعل التوكل على الله وحده بقوله : **{ وقالوا حسبنا الله }** ولم يقل ورسوله ، كما قال : **{ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوه فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل }** ومثله قوله : **{ ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين }** (٤) أى حسبك وحسب المؤمنين ، كما قال تعالى : **{ أليس الله بكاف عبده }** ثم قال : **{ وقالوا سيؤتينا الله من فضله ورسوله }** (٥) فجعل الإيتاء لله والرسول وقد ذكر الفضل لأن الفضل

بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين وقال : **{ إنا إلى الله راغبون }** (٦) فجعل الرغبة إلى الله وحده كما فى قوله : **{ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب }** (٧) .

---

(١) ١١٢ البقرة .
(٢) ١٦ التوبة .
(٣) ٧ الحشر .
(٤) ٨٣ آل عمران .
(٥) ٦٤ الانفال .
(٦) ٣٦ الزمر .
(٧) ٥٩ التوبة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس : " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله " (١) والقرآن يدل على مثل هذا ، وقد ذكر فى غير موضع ، فجعل العبادة والخشية والتقوى لله ، وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله ، كما قال نوح : { أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون } (٢) وقوله : { ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون } (٣) وأمثال ذلك ، فالرسل أمروا بعبادته وحده والرغبة إليه والتوكل عليه والطاعة لهم فأضل الشيطان النصارى وأشباههم فأشركوا الله وعصوا الرسل ، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكلون عليهم ويسألونهم مع معصيتهم لأمرهم ، ومخالفتهم لسنتهم . وهدى الله المؤمنين المخلصين لله أهل الصراط المستقيم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، فلم يكونوا من المغضوب عليهم ولا من الضالين ، فأخلصوا دينهم لله ، وأسلموا وجوههم لله ، وأنابوا إلى ربهم وأحبوه ، ورجوه وخافوه ، وسألوه ورغبوا إليه ، وفوضوا أمورهم إليه ، وتوكلوا على، وأطاعوا رسله ، وعزروهم (٤) ووقروهم ، وأحبوهم ووالوهم ، واتبعوهم واقتفوا آثارهم واهتدوا بمنارهم ، وذلك هو دين الإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، وهو الدين الذى لايقبل الله من أحد دينا إلا إياه ، وهو حقيقة العبادة لرب العالمين ..

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه ويكملنا به ويميتنا عليه وسائر إخواننا المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم (٥) .

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى

(٢) ٣ نوح .

(٣) ٥ النور .

(٤) اى رافعوه وعظموهم .

(٥) هذا هو أخر المخطوطة .



١٦ ش خاطر - التعاون - فيصل - الهرم

ت ٣٨٢٣٠٢١ فاكس ٣٨٣٥١٤٨